الفصل السادس
كونية الإنسان

مــن الفــراغ الكــوني بصــيت أنــا   علي بعد مليون ميل من أرضنا
و لا شفت فرق ما بين عذاب أو هنا   لا شفت فرق بين جبال و بحور

عجبي!!!

صلاح جاهين

مقدمة :

تراودني هذه الفكرة وأنا أتعمق في تأمل نفس الإنسان وفهمها؛ أتأملها والنسيج الاجتماعي وأتأمل الكون. وفي هذه التأملات الثلاثة أتسائل: كيف يمكن أن يكون الإنسان كياناً كونياً شاملاً؟ ولا يدهشني أبداً أن تكون الإجابة بشمول الكون، وشمول الحياة، فى الكيان الإنسانى، الذى يضم أيضاً المادة والطاقة والوعي و الإدراك. فإذا كانت الحقيقة السامية والشمولية من خلال أنْسَانَيته والمتفردة فى كونيته، فهى أيضاً المبدأ الفاعل في الكون بصفة عامة وفي الكوكب الأرضي بصفة خاصة. فالقضية الرئيسية التي تكشف عن ذاتها في سؤال يوجِّهه كلُّ ذي عقل مفكِّر نيِّر: كيف توجد الكثرة في الوحدة؟ وكيف تتجلَّى الوحدة من خلال الكثرة؟ وباستطاعتنا أن نوجزها في موضوعات أو مقولات ثلاث:

١.سلسلة الوجود الكبرى

عندما ننظر إلى الكون نظرة فاحصة، تأملية وعقلية، تتراءى لنا حقيقة، عميقة في سرِّها وكينونتها، وممتدَّة في ذاتها إلى مالا نهاية له. وتبدو هذه الحقيقة في تجلِّيها كأنها سلسلة مُحكمة، تبدأ من الأدنى وتنتهي في الأعلى منغلقة على ذاتها في دائرة لتشكل دائرة، أو حلقة دائرية، ينغلق فيها الوجود على ذاته. وتحدث عملية التدرج فى الأرتقاء بتماسك حقيقي واتصال لا يعرف الانفصال، بحيث يعبِّر خلال هذا الارتقاء عن كلُّ ظاهرة و وجودها بالأخرى. يدلُّنا هذا التسلسل الذي لا يعرف الانقطاع، في أية حلقة من حلقاته، على أن الوجود وحدة متراصَّة في كلِّ عناصره، وفي ترتيباته المنتظمة التي تنطلق من متعضِّياته الأدنى لتصل إلى الإنسان، وفي تنظيماته أو مستوياته الكونية المادية، لتنطلق من أصغر ما في الكون إلى أكبر ما في الكون. ويدلنا هذا الوضع على وجود كثرة في وحدة، وعلى وجود وحدة من خلال الكثرة.

٢.اللاتنوع والتنوع

ولقد اتفاق علماء الفيزياء على أن كل المعلومات الكونية موجودة ومحتواه داخل كل ذرة فى هذا الكون. إن العلماء يعتقدون أن جميع الأشياء قد انطلقت من حالة لاتمايز متجانسة عُرِفَت بأنها عجين، أو دقائق أو حبيبات متناهية في الصغر، أتت منها الخمائر المتنوعة لتشكل الأنواع المختلفة والمتعددة. فكلُّ ما نراه في الكون، وعلى الأقل على كرتنا الأرضية هذه، ليس إلا عجيناً واحداً، أو خلية واحدة، مادة أولية تمايزت إلى عدد كبير جداً من الموجودات عُرِفَت بالأنواع. وإذا كانت هذه التمايزات الظاهرية العديدة قد انبثقت من حالة لامتمايزة، لكنها متجانسة، لتعود وتلتقي في الإنسان بعد مرورها عبر التمايزات العديدة، فإنها تُتَضمَّن في حقيقة واحدة تُعرَف بالكثرة في الواحد.

٣.الأصل ليس الحجم

إذا كان الوجود، في أكبره، أو في لانهايته الكبرى، يشتمل على ذاته في لانهاية صغرى فكلُّ ما نراه في الكون الأكبر نراه أيضاً في الكون الأصغر: لا شيء في النظام الشمسي إلا ويوجد في الكلِّ الصغير. هنا نتساءل: ما هو الكون الأصغر؟ هل هو جزء من هذا الكل؟ أم هو الكلُّ المنغلق أو المنطوي على ذاته في حركة داخلية، كالنقطة التي هي تصغير الدائرة، أو انغلاقها على ذاتها؟

فلقد خلت أركان الكون من ثلاث حالات هي السكون، والمادة المنعزلة، والفراغ المطلق. وهناك علاقات ديناميكية مستمرة بين أجزاء الكون. فلا يُعَدُّ أصغر ما في الكون جزءاً، بل اختصار لما هو أكبر وتلخيص له، وذلك لكي تتم عملية الحياة. والحق أن هذه العملية لا تنقسم، بل تتقلص إلى حدودها الدنيا. فكلُّ ما يقع بين هذا الحدِّ الأدنى من الوجود – الكون الصغير، عالم الصغير – وبين الحدِّ الأكبر والأعلى – الكون الكبير، عالم الكبير – هو سلسلة الوجود الكبرى التي تنتظم في مراتب متلاحقة ومتماسكة ومتجانسة، تتنوع ضمن حقيقة واحدة.

في المادة الأولى، أو الخلية الأولى، ينطوي الكون على ذاته كما ينطوي الإنسان في خلية داخل رحم أمه، وكما تنطوي الشجرة في بذرتها. ومن بعدُ تنتقل هذه الخلية إلى حالة التمايز إلى شتى الأنواع. عند هذا الحد يبدو الوجود وكأنه تنوع أو تشتت غير محدود؛ لكنه، بعد مسيرة طويلة، تبدأ الأنواع في عملية جديدة، هي سيرورة لقاء أو تلاقٍ، أو عملية تضييق على تمايزاتها، فتسير باتجاه المزيد من التلاقي، لتجتمع أخيراً في الإنسان. هكذا يعود الكون، مرة أخرى، ليلتقي في الإنسان بعد أن عرف حالة التمايز والتنوع.

ولما كانت الكرة الأرضية منحنية، أي دائرة مغلقة، فإن التلاقي في الاجتماعية أمر محتَّم وضرورة وجودية كبرى. فالأنواع تلتقي بالفكر، وتتصل الحضارات بعضها ببعض، وتتنامى العلوم وتتطور، وتتحسن طرق المواصلات والمعلومات والنقل، ويزداد العالم الأرضي تلاحماً، وكأن شعوراً واحداً يحتويه، أو كأن روحاً واحداً يُحييه، وذلك في سبيل تكوين نطاق اجتماعي يلتقي فيه الإنسان مع الإنسان. وهكذا يعود التمايز النوعي إلى الالتقاء في إنسانية الإنسان واجتماعيَّته، وتسير الكثرة النوعية إلى غايتها التي تُعرَف بشمول أرضي كوكبي، ليحقق لقاء الإنسان مع الإنسان.

رحلة تكوين جنين

يحتوى الإنسان على ٢٢٠ نوعاً من الخلايا، ولكن الجسم يحتوى على مليارات الخلايا. وعندما يرتبط رجل بامرأة فهنا يحدث تجاذب بين عالمين متنوعين فى الموروثات والمكتسبات العقائدية والعلمية والبيئية والاجتماعية والأسرية. ويحدث التلاقى الفيزيقى بين العالمين (المرأة والرجل) حيث يتلخص هذا العالم من التنوع كأب أو أم لينتج خلية جنسية. وكل خلية منهما تحمل نصف التراكيب الوراثية للأب والأخرى تحمل نصف التراكيب الوراثية للأم. ويأذن الخالق لتستضيف الأم فى رحمها هذه البويضة المخصبة كاملة التركيب الوراثى ولكن من أصل الأب والأم معاً. بمعنى أن هذه الخلية الغير مرئية تحمل داخلها تراكيب وبرامج وشفرات بل وبيئات تسمح بحدوث انقسامات متتالية فى صورة متناهية الدقة فى المكان

والزمان والعدد والنوعية والحجم. كل ذلك يتم فى ظلام حالك وتأتى الروح من الخالق لتتوج هذه المعجرات ويبدأ فى تكون السمع والبصر والمخ ويتولد الادراك الأولى للجنين. أنها سلسلة من التنوعات والمعجرات تنتهى بهدية للأبوين وهى جنين وطفل يزيد الترابط المادى والمعنوى بينهما.

والطفل هو امتداد للأبوين وليس صورة طبق الأصل لهما. فهو نسيج ديناميكى حى يشمل كل المورثات والمكتسبات لكل من الأب والأم. فالطفل ثمرة التكامل الإنسانى بين الرجل والمرأة. بل إن الطفل يكون بمثابة نوع من أنواع الارتقاء الإنسانى وخاصة المعنوى والحسى بالنسبة للأب و الأم، وهذا الارتقاء يشمل صورا من التكامل على المستوى الأسرى ككل والمجتمعى أيضاً. وينمو هذا التكامل ويتطور ليشتمل على الأسرة والمدرسة والجامعة والمجتمع. فالتكامل يبدأ بين مكونات الخلية الواحدة ثم بين خلايا العضو الواحد ثم بين الأعضاء المختلفة ثم بين الأفراد والمجتمعات والشعوب والدول ثم بين المجرات.

الخلية والإنسان

الخلايا ليست كائنات مثلنا نحن، وهي لا تستطيع أن ترى بعضها البعض ولا أن تسمع ولا أن تقرر، فهي عديمة العقل والبصر و السمع، ولكنها كما سنرى لاحقا تستطيع تمييز المركبات الكيميائية، والحال أنها لم تتلق أي تعليم في مادة الكيمياء. فهي تستطيع إنتاج المواد المختلفة نسبة إلى هذه المركبات الكيميائية، وكذلك تستطيع تمييز هذه الظواهر الفيزيائية وهي كذلك لم تتلقّ أي تعليم في مادة الفيزياء. وبالرغم من ذلك تقوم هذه الخلايا بتعيين نسبة الضوء الداخلة إلى العين، وبالتالي تمكّننا من رؤية الأشياء. ونحن نسأل أنفسنا كيف تستطيع هذه الخلايا إنجاز جميع هذه الوظائف؟

الشبكة العملاقة التي تلف أجسامنا

هل حصل وسألت نفسك عزيزى القارئ الأسئلة التالية:

- هل ينبغي عليّ التنفس الآن؟

- هل أنّ الدم الذي يضخه قلبي ذو مقدار كاف بالنسبة إليّ؟
- ما هي كمية الطاقة التي تحتاجها أية خلية أو عضو في أجسامنا؟
- متى تبدأ معدتي في هضم الطعام الذي تناولناه؟
- ما هي العضلات التي ينبغي أن أحركها كي أحقق حركة ذراعي؟

ربما بدت هذه الأسئلة غريبة بعض الشيء على أسماعنا لأنها أسئلة عادة ما تكون غير واردة في أحاديثنا، بل إن أغلبنا لا يعلم شيئا عن هذه الأفعال التي تجري داخل أجسامنا لأن أجسامنا تنجز هذه الأعمال بصورة تلقائية. ولأجل قيام أجسامنا بهذه الوظائف أو الأعمال تُستخدم الشبكة العصبية التي تلف أجسامنا، وتتألف هذه الشبكة من اتصال تريليونات من الخلايا العصبية. ويمكننا تشبيه هذه الشبكة التي تلف أجسامنا بشبكة من الطرق البرية السريعة. وبواسطة هذه الشبكة يتم تحقيق الاتصال بين خلايا المخ و خلايا سائر أنحاء الجسم، وبالتالي تستطيع كافة خلايا الجسم تحقيق الاتصال فيما بينها. غير أن هذه الشبكة العصبية تختلف عن شبكة الطرق البرية باحتوائها على عدد هائل من نقاط الارتباط والمنعطفات، و هي كذلك تتميز بكونها ذات أطوال تقدر بكيلومترات عديدة. ومثلما تتحرك السيارات أو المركبات على الطرق للانتقال من منطقة إلى أخرى تتحرك الإشارات العصبية متنقلة بين أجزاء الشبكة العصبية، وتقوم هذه الإشارات بنقل المعلومات والإشارات العصبية من منطقة إلى أخرى داخل الجسم.

ويتميز انتقال هذه الإشارات العصبية بسرعة مدهشة بحيث يصعب علينا تخيلها. وعلى سبيل المثال لو أردتم تقليص عضلة الذّراع، فعندئذ تصدر إشارة عصبية من المخ متبعة طريقا شائكا، إذ تصل إلى العمود الفقري، ومن ثم تتوجه إلى العضو المناسب بسرعة هائلة، وبالتالي تبدأ عضلة الذراع في التقلص. وكل هذه الأعمال تحدث خلال جزء من الألف من الثانية. وإذا افترضنا أن رمشة العين تحدث خلال ثانية واحدة عندئذ نعرف مدى قصر الفترة الزمنية التي تحدث فيها العملية المذكورة. ويبين لنا المثال السابق أن الإشارات تصل إلى كافة أنحاء الجسم بواسطة الشبكة العصبية، ويبين لنا أيضا أن الإشارات العصبية بدورها تصل من كافة أنحاء الجسم إلى المخ بواسطة الشبكة نفسها. وتتدفق هذه الإشارات إلى المخ بسرعة هائلة

دون توقف، أي أن هذه الإشارات تجري داخل الشبكة فتمكننا من أن نعيش حياتنا بصورة طبيعية. فعندما نرى شيئا أو نتذوقه أو نتناوله، وكذلك عندما نتكلم أو نفكر أو نجري أو عندما نمارس أي نشاط آخر يحدث كل ذلك بصورة فورية بمساعدة الشبكة العصبية، أو بالأحرى بواسطة التكوين المذهل للمخ والجهاز العصبي.

ومستوى نشاط المخ من الناقلات العصبية مثل الدوبامين والادرنالين من الممكن أن يكون سبب هذا. الأخطاء في تقدير الوقت من الممكن أن يكون سببها اختلاف مستويات الناقلات العصبية في المخ. فعندما يجلس رجل بجانب امرأة جميلة لمدة ساعة تبدو له كأنها دقيقة، وعندما يجلس فوق موقد ساخن لمدة دقيقة تبدو له كأنها ساعة. وهنا تتلخص نسبية الوقت بالنسبة للفرد. فالزمان هو طاقه متحررة معنوية ثابتة التغير بالنسة للحركة خلالها وعلى العكس فالمكان هو الشئ الذى تكمن فيه الطاقه الكامنه غير متحررة.

الجمال فزورة

نأتى للإنسان فهل يكون الجمال في المرأة ذات الشعر الأسود أو الأحمر أو الأشقر أو الرجل الطويل أو القصير أو الطفل ذو العين الزرقاء زرقة المياه أو زرقة السماء أو ذو الجلد الأبيض ناعم الملمس أو ذو الشعر الحرير أم ذو الشعر الخشن. والواقع يؤكد فى جميع الأحوال إن الحياة ليست مجرد مادة مندفعة لتوكيد ذاتها وفرض سيادتها على البيئة وإنما هى تتضمن الجمال كشخصية تضفى قيمة معنوية عالية. فالجمال مرتبط بالذات والروح هى صفة الجمال ذو الكمال ولذا لزم تضامن كل من الشخصية المادية بالشخصية الجمالية للوصول لنوع من أنواع الشخصية التكاملية الطالبة لنوع من أنواع الكمال.

فالمنظر الجميل يخطف عين الإنسان، والوجه الجميل يخطف قلبه، والموسيقى الجميلة تغمره بالنشوة والطرب وتأسر حواسه. فما معنى الجمال؟؟ ودعنى أسوق مثلاً فالسبورة السوداء أنفع للطالب فى التعليم الأساسى عن اللوحة الجميلة إلا أن اللوحة تغذى النفس المدركة لهذا الجمال بنسب متباينة. وحبة القمح أنفع من اللؤلؤة ومع ذلك فاللؤلؤة أجمل، إذاً

فالسر ليس المنفعة .... والأخلاق مهما بلغت من السمو لا تستطيع أن تجعل من المرأة القبيحة ملاكاً إنها تصبح جميلة فى عين العقل وحده...والجوارح هى المرجع، والأرشيف يحتوى على مراجع الجمال وأصول الفتنة، وهى التى تحتوى على شفرة العلاقات الجمالية كلها... ومشكلة الفنان هى فى محاولته الدائبة لاكتشاف هذه الشفرة والتعرف على هذه العلاقات. وفى النهاية أقول أن الإنسان هو شخصيات مادية جمالية جوارحية عقلية ونفسية فى صورة تكاملية.

التواصل الإنسانى مع الكون

الإنسان فى حالة تفاعل و احتياج مستمر بما هو محيط. ففي جسمه يتم اللقاء بينه وبين الكون في عملية مباشرة، في تواصل مباشر. إنه يتحد مع الكون المادي من خلال طعامه وشرابه وتلاؤمه مع البيئة؛ ذلك لأنه يشكل مع الكون المادي كياناً واحداً؛ ويتحد مع الغلاف الغازي في تنفسه ويتفاعل معه؛ ويتحد مع النور والحرارة والأشعة الكونية الأخرى؛ ويتحد مع الإنسان في أنواعه الإنسانية العديدة ليمتد في نفسه، وفي صورتها الاجتماعية والكونية، إلى ما لا نهاية له. ويفكِّر الإنسان في وجوده وحقيقته، وهو يتأمل الكون في كلِّيته وشموليَّته، ويسعى إلى توطيد اتصال جواني معه. وهكذا يكون الإنسان هو النقطة – الشبيهة بنقطة الدائرة حيث تلتقي الدائرة كلُّها – أو البؤرة التي يلتقي الكون كلُّه فيها، والمجتمع الإنساني كلُّه أيضاً. لإستمرار الإنسان مرتبط باستمرار المحيط فديناميكا الإنسان تستمر وترتبط بديناميكا الطبيعة المحيطة.

المطلق والنسبى

«المطلق» هو التام والكامل؛ فهو لا يحده حد؛ واجب الوجود؛ المتجاوز للزمان والمكان. أما النسبي، فهو ما يُنسَب إلى غيره ويتوقف وجوده عليه ولا يتعيَّن إلا مقروناً به. وهو مُقيَّد وناقص ومحدود، مرتبط بالزمان والمكان ويتلون بهما ويتغيَّر بتغيرهما، ولذا فالنسبي هو نسبى نسبى، داخلى وكذا نسبى خارجى، حتى فى ظل ثبات المحيط الداخلى فهو يرى ويتحسس من خلال نسبيته وليس من خلال المطلق المحيط. أما النسبية المطلقة فهى تؤدي

إلى العدمية لأنها تنكر وجود أي تميُّز أو اختلاف، أو مقدرة على إصدار الأحكام، الأخلاقية أو المعرفية أو حتى الجمالية، أو على تغيير العالم أو على إصلاح الذات أو على تجاوز المعطيات الواقعية، الطبيعية/المادية، ولذا فهي تنتهي بإنكار كل شيء: الأخلاق والميتافيزيقا والكليات والإنسان .

الأصل فى الإنسانية النسبية

إن الله جل شأنه قد أودع فى الإنسان طاقات خلاقة، وأودع فى الكون مغاليق أسراره، وأرسل رسله بمفاتيح أنواره. إن المادة يحتويها الفراغ كما تحتوى الرئة الهواء المحيط، فهل يحتوى الإنسان ما هو محيط به أم أن المحيط هو الذى يحتوى الإنسان، فالمادة هى دالة وجود الفراغ فهى جزء منه. وإذ كان ذلك كذلك فهل نسبية القدرة الحركية للمادة فى المحيط تحكمها المادة نفسها ام ما هو محيط بها؟

لا يوجد مطلق فى الكون إلا الخالق وأى شيء آخر فهو نسبى بالنسبة لكل إنسان بل للإنسان الواحد حسب الحالة المزاجية له. فالأصل هو النسبية، وعلى سبيل المثال، يمكن أن تحب أن تسمع أغنية فى وقت ما وفى حالة مزاجية معينة ولكن ممكن أنك لا تحب سماعها فى وقت آخر وحالة مزاجية أخرى. والإنسان المحب للخير والواعى للمحبة فى الله يكون محباً لكل مخلوقات الخالق الحى منها وغير الحى (الصخور والرمال)، ولذا تجده محباً للإماكن الجميلة ولكن الشخص ذو التفكير والسلوك السلبى يضفى السلبية حتى على الأماكن الجميلة، فما يراه فى صوره الدماغية لما يحيط به يختلف على ما هو موجود من جمال بالفعل. فكل إنسان خلق من أجل التعاون والتكامل، ونسبية تعاونه مع الأخر تضفى عليه الحب والمحبة والسلام النسبى وهذا كله نسبى للمتلقى ونسبى للقائم عليه.

حتى الموت نسبى، وأوضح لك عزيزى القارئ كيف يكون الموت نسبياً؟ فالإنسان الخير ذو السمعة والذكرى الطيبة يظل حياً بين الناس يتذكرونه ويترحمون عليه. والعكس بالعكس، كما أن الأعمال الطيبة والصدقة الجارية ومحبته للناس وخدمته للمجتمع المحيط

والمجتمع الدولى والكونى يكون بمثابة الحبل السرى الذى يغذى ذكرى هذا الشخص على مر العصور. فالإنسان المعطاء يكون الموت بالنسبة له هو فناء الجسد ولكن تبقى الذكرى، أما الشخص الغير معطى تتوفى ذكراه قبل أن يتحلل جسده فى مدفنه. والإنسان بولادته يكتب اسمه فى سجل الموتى.

وللتأمل أهمية في الحياة، ويعرّف التأمل بأنه القدرة على أن تسخير الفكر الواعى للإنسان لكى يرضى ويكونَ فى حالة سعادة. وحرية، كسعادة الطيور في تحليقها وبالتالى فى حالة محبة ورضى.والعكس بالعكس حيث أن الإنسان الذي هو في حالة نفسية بائسة وتفكير سلبيى،تكون معظم حواسه معطلة يعيش في حالة تجمّد، متشبثاً بعقائد جامدة فارغة من الروح والحب، تعيقه عن التواصل الحقيقي مع الناس.

إن الإنسان فى ذاته فى حركة ديناميكية مستمرة، فيترك أفكاره السلبية تتساقط كما يتساقط الورق اليابس عن أغصان الأشجار، بل ويزيل الصدأ عن أفكاره وأحاسيسه، ويفتح مسامه لنور الحقيقة.فالأصالة الحقيقية والفطرية الكامنة في نفوسنا، والتي تميل للسلام والمحبة والتكامل مع الغير يمكن أن تكون قد ضيّعت بسبب الضغوط الهائلة على الإنسان لهذا الزمن، وبسبب الخوف والتطلع لأشياء كثيرة بحجة أشباع رغبات ملحة تفوق مهارته المكتسبة والمورثة وبالتالى يلجأ لاساليب ملتوية قد تؤدى لاشباع جزئ لرغباته ولكن على حساب الإدراك الحقى والواعى لإنسانيته.

حتى الرغبات والاحتياجات هى فى حد ذاتها نسبية للشخص الواحد بل للناس ككل فالطفل الرضيع يحتاج لأمه، والشاب المراهق يحتاج لحبيبته والرجل يحتاج للزوجة وكذا البنت تحتاج لحبيب وتحتاج لزوج مع انغماس الأنفس للاحتاجات الفسيولوجية الحياتية والأحتياجات الأمنية والأجتماعية، ويتأجج أحتياجه كل يوم للأحتياجات الروحية والتى تكسبه السعادة الدائمة غير الزائفة.

والحياة، هدية من الخالق، كذلك الولادة والحب والموت هدايا، إذا عرفنا كيف نكون شاكرين حامدين لله. فكل شيء يتحول إلى هدية، وهناك آخرون يفتقرون إلى الإحساس بالشكر، ومن الناس مَن يُدين الآخرين دائماً ويتذمرون ويطلبون المزيد والمزيد. بينما النوع الأول فقط، هو الذي يصبح ورعاً وشكوراً. على عكس الثاني الذي لا يستطيع ذلك، لأنهم إتّكاليّون ويظنون أن الله يجب عليه أن يلبي كل طلباتهم، ولذلك، يجدوا فى التفكير السلبيى الملاذ الأول لهم، حيث يشعرون دائماً هؤلاء أنهم مكبوتون، وأن كل ما يحدث باطل ومخادع، ولا شيء يملأ قلوبهم بالرضى.

الزمن الإنسانى

إن الزمن هو (التغير)، والسبب في شعورنا بانسياب الزمن هو الانتظام الكامن في الطبيعة الذي يظهر في صورة انتظام للحركة. ويكون مقياس الزمن لجسم ما هو معدل (تغيره) منسوبا لتغير جسم آخر منتظم (كدقات الساعة مثلا). وتخبرنا نظرية النسبية العامة بأن الزمن الخاص بالجسم (أي معدل تغيره) يكون أبطأ إذا تحرك بسرعة أكبر أو إذا تعرض لمجال جاذبي قوي، أي إذا تأثرت طاقته الكلية. وذلك في حين تخبرنا النظرية المعيارية للذرة أن مكونات الذرة، (وبالتالي كل الأجسام) تتراوح ما بين الحالة الجسيمية والحالة الموجية. فإذا كان الزمن الخاص بالجسم هو معدل تغيره، فإن الارتباط بين طاقة الجسم ومعدل تغيره، كما تخبرنا نظرية النسبية العامة، يكون أمرا مقبولا. كما أن تأثر المسافات داخل الذرة (وبالتالي طول الجسم) بتغير طاقة الجسم يكون أمرا مقبولا أيضا.

إن كل دقة من دقات الساعة تقول لصاحبها الزمن يمر والعمر يقل فكن يقظاً. وبالتالى فالزمن الإنسانى يشمل الزمن الميقاتي بالأضافة إلى الزمن النفسي: فالزمن الميقاتي ـ محدد طبيعي – يلزم استمراره تتابع انتهاء الآنية الحالية ومولد آنية تالية، وبالتالى فهو له بداية ونهاية،أما الزمن النفسي – نسبي – إحساس متغير بالبداية والنهاية. ومن هنا نلاحظ أن الزمن النفسي أو الزمن السيكولوجي يتغير قياسا إلى إحساسنا بالأشياء وبذلك يمكن أن يكون سبيلا

إلى الزمن المطلق الذي لايحده زمان ولامكان ويمثل الجوهر الذي تقاس به الأشياء أي تنسب الأشياء إليه. فالزمن الإنسانى الحاضر هو حاضر مستمر بالنسبة لاناس متتالين فى الآنية وبمعنى آخر فحاضر الجد هو ماضى الأبن والمستقبل البعيد للحفيد، فالزمن الإنسانى هو زمن نسبى للشخص الواحد بل ولكل شخص على حده. فالوقت أثمن وأغلى قيمة من الذهب والفضة لأنه سوف يقتطع من الأعمار فما مضى من العمر فهو إما لك أو عليك ولن يعود.

فإذا اقتصر تصورنا على أن الزمن ليس إلا تعبيرا عن قياس معدل التغير لجسم ما أصبح واضحا أن هذا التغير لا يمكن الحديث عنه بعد حدوثه كأنه موجود يمكن الذهاب إليه (في الماضي). ولا يمكن أيضا الحديث عنه باعتباره موجودا في المستقبل وأننا يمكننا الذهاب إليه. والسبيل الوحيد للحديث عنه هو باعتباره معلومات محفوظة في الذاكرة لا تتمتع بأي وجود، مستقل لا في الماضي ولا في المستقبل. فواقع ان (التغير) في ظروف معينة يمكن أن يكون أسرع منه في ظروف أخرى لا يعني أن الانتقال من هذه إلى تلك ثم العودة يعني السفر إلى المستقبل إلا بمعنى مجازي. فالسفر على متن سفينة فضاء تسير بسرعة تقترب من سرعة الضوء ثم العودة إلى الأرض بعد أن يكون قد مر عليها عشرة آلاف عام مثلا لا يعني سوى أن التغير على متن السفينة أبطأ منه على ظهر الأرض بهذه الفترة. والسبب في وجود هذا النوع من التصورات (مثل السفر إلى الماضي والمستقبل) والمرتبطة بالنسبية العامة، هو أن النسبية العامة نظرية مرتبطة بظواهر الأجسام فقط، وليست مرتبطة ببنية وجودها المادي، كما هي الحال في نظرية الكم. فنسبية الزمن هي (ظاهرة) ولكن سببها المباشر المرتبط ببنية الوجود دون الذري لا يزال مجهولا، وذلك بسبب غياب النظرية الموحدة للكم والجاذبية وبسبب غياب هذه النظرية تسود نظريات الخيال العلمي والتي لا ترقى لأن تكون نظريات علمية تجريبية، وبسبب غياب هذه النظرية أيضا تختلف الآراء بين العلماء.

رؤية فلسفية للوقت

في قاموس (أوكسفورد) الإنجليزي، نجد أن الوقت هو:

"التقدم المستمر وغير المحدَّد للوجود وللأحداث في الماضي والحاضر والمستقبل كمنظومة واحدة". وقديماً قيل أن الوقت هو وسط لحدوث القدرة الإلهية. وسعى الكثير من الفلاسفة القدماء لتفسير وتعريف الوقت، وكان معظمهم يؤمن أن الوقت هو الجوهر الذي حوله تقوم الحياة. ولا مفر لأي عالم يريد أن يقدم شيئا متميزا في الفيزياء من أن يصطدم بجدار يجده في طريقه مكتوب عليه سؤال "ما هو الزمن وما هو الوقت". ولعل الذين ارسوا دعائم الفيزياء التقليدية غاليلي أولا ثم لايبنز ونيوتن قد أجابوا عن هذا السؤال بأن اكتفوا في تطبيقاتهم العملية بالتعامل مع الوقت الميقاتي المعهود الذي عهده عامة القوم. غير أن نيوتن وجد ما توصل إليه بياجيه في حقل الرياضيات وعلم النفس بأن السرعة هي الأساس وما الوقت إلا ظل السرعة. فقد توصل بياجيه إلى أن العقل الإنساني في طور النمو وفي مرحلة الطفولة المبكرة يدرك التعاقب ويدرك بالتالي السرعة أكثر من إدراكه للوقت بشكل مستقل. أما آينشتاين فقد اعتبر أن سرعة الضوء هي المقياس الذي يمكن اعتماده لقوانين الفيزياء النووية. والحقيقة أن الفيزياء ما بعد الكوانتية وأعني بها الفيزياء التي تتبنى نظرية الوتر قد اقتربت لفهم الظواهر الفيزيائية ما دون الذرية من الفلسفة المحضة أو الفلسفة المجردة.

صرح علماء الفيزياء الحديثة أنهم في بحوثهم حول الظواهر ما دون الذرية قد ولجوا باب الفلسفة، وأنهم أصبحوا مضطرين إلى التعامل مع الظواهر المادية – الطاقية على أنها ظواهر لا يمكن لهم أن يقرأوها إلا بمساعدة طريقة التفكير الفلسفية. والحال أن الفلسفة منذ كانت في المهد قررت أنه لا مناص لفهم الظواهر الفيزيائية والميتافيزيائية إلا من خلال الخروج من الوقت الأرضي ومقتضياته والدخول إلى باب المعنى، لذلك كانت مفرداتهم الأساسية هي الوجود والماهية والسببية. وفي هذا الفلك ما يلاحظه الملاحظون من أن الفلسفة قد ارتفعت منذ نعومة أظفارها فوق ذلك الجدار، حتى أنهم لم يلحظوا ذلك المكتوب وتركته للأرضيين من الناس.

الوقت

إن الوقت هو وعاء يحتوى الأحداث المادية (اسلفر، الحوادث المؤلمة) و الأحداث

المعنوية (الحب، العاطفة، الحزن، الفرح)، مع العلم أن مادية الأحداث أو معنوياتها تعتمد على رؤية المسبب لها. وبالتالى فالوقت وسط يلتقى فيه الفعل والفاعل والمكان بأبعاده. والأحداث تتولى على المستوى الوقتى وليس الزمنى. فالوقت يمتاز بالذاكرة المليئة بالأحداث وبالتالى بالظروف الوقتيه من حاضر وماض ومستقبل وهى أيضاً من وجهة نظر المسبب ووجهة نظر المستقبل. فالمسبب دائماً يكون حدثه حاضراً له وفيه وبه كأدراك واع ثم أرداك غير واع مستمر ومتتالى. فمثلاً وفاة طفل بالنسبة للأسرة هو فعل حاضر مادى ولكن بمرور الوقت يكون الحدث معنوياً يرتبط بمدى حب الأسرة لهذا الطفل.

وهنا لنا سؤال يطرح نفسه عليك عزيزى القارئ وهو هل تبقى الأحداث مادية فى وعاء الوقت أم تتحول لصفه الحدث المعنوى أم تنتفى الأحداث بإنتفاء المسبب لها؟ فلو أمكننا السفر عبر الوقت يمكن نرى من خلال ذاكرة الوقت الأحداث التى تمت بمسبيها وتكون كفلم سبق تصويره أم سنسمع بها كحادث معنوى أم لا نرى أداث الماضى وتكون الذاكرة الوقتيه ذاكرة سبيه فقط. فبناء الأهرامات هى احداث مادية باقيه، أما أصحاب وملوك الأهرامات فهم أحداث معنوية، أو كما يقال أصبحوا ذكرى فقط. وبالتالى فالأحداث تولد مادية وتصبح وتكسى بالصفة المعنوية بدخولها حيز الماضى للمراقب لهذه الأحداث.

فالوقت ليس له أحساس بمروره فمادية الوقت تقع على كاهل المراقب والذى يقيسه فقط. ولتقريب ذلك للقارئى الكريم فإن المادة لا تعى ما حولها من أشياء ولا تعى ماديتها وكذلك الوقت فكل ما نتكلم عنه من حاضر ومستقبل وحاضر هو بمقياس الشخص المستقبل نفسه والمسبب للحدث أم وعاء الوقت ليست له هذه المقايس، فحاضر أحداث القرن العشرين هى ماضى بالنسبة للقرن الواحد والعشرين. والوعاء لا يعى ولا يكترث بما يحوى من مادة. فالوقت يمر فى أتجاه واحد حيث تتمتع ذاكرته بمرور الأحداث به ولكنه لايملكها ولا يملك التفاعل معها فهو لا يعييها. ولكن الوقت هنا يرتبط بمكان وسبب ومسبب الحدث ومن هنا يكون الوقت مرتبطاً بمكان حدوث الحدث أى أن لكل نقطة ومكان على هذه الأرض زمنها المرتبط بها.

ولقد عكف الإنسان على قياس الوقت ونجح فى ادراكه وتقسيم مكوناته، ولكن ضاقت به العلوم لقياس الزمن ولذا فإن الوقت هو الجزء المادى من الزمن والذى يمكن تتبعها وقياسها بل وأدراكه بوعى كامل، ولكن لايمكن التحكم فى سرعتها فالوقت يمتاز بالمحدودية أما الزمن فهو الوجه المطلق للمحيط التتابعى والسريان المستمر للكون. وبين محدودية الوقت ومطلق الزمن توجد حالة وسطية وهى بمثابة النفس بالنسبة للطيفة الروح ومادية الجسد ويمكن تسميتة هذه الحالة "الزماوقت".

فالمادة الخام لفيلم السينما لا تحكي قصته ولا تميز أحداث الفيلم و لا الممثليين العاملين به أو ترتيب ظهورهم أو ترتيب الأحداث أو نوعية الفليم (درامى، أكشن، رومانسى، أستعراضى، وثائقى) أو لغة الفيلم. وكذا الحال بالنسبة للوقت حال وجود الإنسان وأحداثه. فالوقت لا يهمه من يعيش فيه ومن عاش فيه سابقاً، فالحاضر والماضى والمستقبل هى قياسات للناس لتحديد الوقت بالنسبة لها والوقت لا يعير هذه القياسات أى أنتباه. فتسلسل الأحداث يُعنى بها الإنسان ولذا وضع لها التوقيت أما الوقت فسريانه مستمر فى اتجاه واحد. فكيف لمحدود الوعى يلم بمطلق الزمن والوقت ونسبيتهما.

الوقت الأهرامات

ما من شخص تقع عينه علي الهرم الأكبر للمرة الأولي إلا ويتسمر في مكانة ويرفع رأسه لأعلي يجيل بصره في البناء الشاهق مطلقا عبارة تعجب: ما شاء الله. فذاك الهرم هو واحد من عجائب الدنيا السبع القديمة، فقد بقي ذلك الهرم شامخا يتحدي الزمن ويسخر من علوم عصرنا المتطورة. بقي الهرم هو الشغل الشاغل - عبر العصور المختلفة – لعلماء الآثار و المعماريين الذين لم يستطيعوا التوصل حتي الآن لكيفية بنائه!، بقي الهرم الأكبر لغزا محيرا لعلماء الفيزياء و الجيولوجيا و الفلك و حتي علماء الأحياء بما ينضح به من أسرار كل يوم. وبما أن هذا العمل حدث وتم بعده القياس فهذا المرور المتتالى والمتتابع هو مرور وقتى وبالتالى يقاس بالوقت. وبالتالى الأحداث التاريخية مهما قدمت وحدثت منذ أزمنة سحيقة فهى

وقت وليس زمن ينساب يحتضن الوقت والتوقيت والميقات دون التأثير عليها أو التعامل مع الحالة العامة للمراقب لها.

والهرم **(Pyramid)**، هو شكل هندسي مجسم كثير السطوح واحد أوجهه مضلع منتظم يسمى قاعدة الهرم، والهرم ينتج عن ربط زوايا قاعدة رباعية الأضلاع أو ثلاثية الأضلاع بنقطة واحدة تسمى القمة، والشكل الأشهر للقاعدة هو القاعدة المربعة. وكثير من خبراء يوضحون أن الزمن بمثابة القاعدة الهرمية التى تحمل بقية أوجه الحياة وهى الحركة والأحداث والوقت دون التأثر بها. فتواجد الزمن لازم لوجود الوقت ولكن ليس العكس.

الصوفيون والزمن

هناك صنف آخر من الطرق المعرفية قد ارتفعوا فوق جدار الغيب غير أنهم لم يرتفعوا مثل الفلاسفة دفعة واحدة فوقه، لكنهم صعدوا بالتدريج إلى أن انخرطوا في المطلق والسرمدي. وفي تلك اللحظة تلاشى تماما الجدار وما كتب عليه. الأمر أن الصوفيين ومن سلك مسلكهم قد عاشوا في اللازمن غير أنهم اتبعوا طريق التجربة أي أنهم وضعوا أنفسهم داخل التجربة ولم يكتفوا شأن الفلاسفة بأن يدخلوا التجربة بعقلهم الواعي فقط. وقد وصف الفلاسفة والصوفيون على السواء لردح طويل من الزمن بأنهم لا يمتون إلى الواقع بصلة، وبأنهم ظاهرة محيرة. وقد وقف العلم ولا سيما العلم الوضعي والتجريبي البراغماتي موقف المستهزئ من التجريدات الفارغة التي ينتهجها أتباع الفلسفة وأتباع الصوفية. والحقيقة أن هؤلاء العلماء كانوا لا يلتفتون إلى كل من هذين الفريقين إلا عندما تثمر أشجارهم قوانين رياضية كقوانين الخوارزمي وعمر الخيام، وديكارت أو قوانين فيزيائية أو تطبيقات طبية. الزمن والطفولة المبكرة ما نلاحظه أن العلم كلما تقدم أكثر عبر عن مكنونه الفلسفي ودلل على الجذر الذي خرج منه، فالبحوث التجريبية الحديثة في علم النفس قد بينت بلا مجال للشك أن الزمن بالنسبة للإنسان ما هو إلا لحظة من لحظات الوعي، فالطفل في مرحلة الرحم وفي طفولته المبكرة غير مدرك تماما للزمن فضلا عن إدراكه لمفهوم الزمن. والحال أن إدراك الزمن يظهر وينمو مع ظهور ونمو الوعي أو ما

يدعى الآن بالعقل الواعي،ولكن لو تساءلنا ما هو الزمن بالنسبة للطفل في مرحلة الرحم أو الطفولة المبكرة؟ علينا للإجابة عن هذا السؤال أن نحاول أن نفكر دون وعينا، ومن داخل الحالة. لأن الحالة التي نتكلم عنها خارجة عن دائرة الوعي. الحقيقة إننا في هذه الحالة لن نستطيع أن نتصور الزمن على الإطلاق. ولكننا فقط نستطيع حدسه، حيث يبدو لنا أنه السرمدي الممتد، المطلق، الخلود، اللامنتهي.

الزمن والوعي الإنساني البدائي ما ندركه عند تأملنا الزمن في مرحلة الرحم والطفولة المبكرة ندركه أيضا في الوعي الإنساني البدئي أي المرحلة التي مر فيها الوعي الإنساني البدائي ما قبل نشوء التقويمات، فإن نظرنا وسألنا أنفسنا كيف كان إحساس الرجل 'النيادرتالي' أو الجماعات الإنسانية قبل نشوء التقويم الفرعوني أو السامري أو الميلادي أو اليوناني أو الهجري؟ في مرحلة لم يكن هناك معنى للسنة أو الشهر أو الأسبوع أو اليوم أو الساعة والدقيقة والثانية. الحال أننا نلاحظ ما لاحظناه في الطفل طور الرحم أو الطفولة المبكرة حيث أن الوعي غير المكتمل لا يدرك الزمن. ومنه فإن الأقوام البدائية كانت غائرة في السرمدي غير متمايزة عن الطبيعة وعن اللحظة وهي من المؤكد لا تعرف من الزمن سوى التتابع في الحركة الأسطورة والزمن الممتد. إن الميثولوجيا تزودنا بمعرفة مهمة عن كيفية تعامل العقل الإنساني مع الزمن.

الماضي والحاضر والمستقبل

حنين وألم وقلق، لو قسَّمنا الزمن بأسره إلى ثلاثة مقاطع هي الماضي والحاضر والمستقبل، لوجدنا أيضاً تحديدات مختلفة لكلٍ من هذه المقاطع، تتنوع بتنوع ثقافة صاحب التحديد. فالماضي هو بالنسبة للبعض الحاضر الذي لم يعد موجوداً. والحاضر بالنسبة إلى البعض الآخر "نقطة مرت لتوها"، حسب تعبير دايفيد راسل، والمستقبل حسب تحديد باراسيلسوس "هو ما يصل إليه كل شخص بمعدل ٦٠ دقيقة في الساعة، مهما كان ومهما فعل". أما سومرست موم فيقول: "إني لا أفكر بالماضي. كل ما يهمني هو الحاضر الأبدي". فبالنسبة إليه الحاضر سيبقى دائماً موجوداً، وإلى الأبد. فالحاضر والماضى والمستقبل هو نسبى

بالنسبة للإنسان المراقب وليس للوقت دخل فى هذا التقسيم بل ولا يعنيه هذا التقسيم.

أما ما يشترك به معظم البشر فهو ليس في تحديد هذه المراحل الزمنية، بل في الموقف منها. فالحاضر (الذي يشمل بمعناه العام ما مضى منه قبل قليل والمستقبل القريب جداً) هو دائماً متعب ومؤلم ومثقل بالقضايا التي تتطلب من الإنسان جهداً وعملاً لمواجهتها. والمستقبل هو دائماً مصدر قلق، قلق من المحاذير التي قد تحملها الأيام والسنوات المقبلة: الفقر، المرض، المشكلات الاجتماعية، الحروب، الموت.. ولا ينجو من هذا القلق كل ما ومن يقع بين الأفراد والحكومات الدول. وفي مواجهته هناك ما سماه الإنسان «التخطيط للمستقبل»، الذي يشمل نطاقات ومجالات لا حصر لها، تبدأ بسعي الإنسان إلى ادخار بعض أمواله درءاً لـ «غدر الزمان»، وتنتهي بالمشاريع المستقبلية للحكومات والدول والمؤسسات العلمية العالمية. أما الماضي فحكايته مختلفة.

الماضي هو المرحلة الزمنية الوحيدة التي أصبحت خالية من الألم والقلق. ولهذا، فهو دائماً مثير للحنين. وإن رصد المواقف التي تصدر من حولنا في حياتنا اليومية حول تبدل بعض الأمور ما بين الأمس واليوم، يكشف دائماً شكلاً من أشكال الحنين إلى الماضي. وهذه الملاحظة عامة، يمكننا أن نلحظها في كل المجتمعات، وبوضوح وحزم، وكأن لسان حال العالم يقول إن كل ما كان في الأمس من أمور وعادات وتقاليد وصناعات ومنتجات هو أفضل مما أصبح عليه اليوم. علماً بأن المقارنة المجردة والحسابات الباردة تعطي لكل هذه الأشياء والأمور كما هي الآن أفضلية على ما كانت عليه بالأمس. ولكن هيهات أن تستطيع المقارنة المنطقية أن تتغلب على الحنين إلى الماضي.

إن كل شعوب العالم ترى هوياتها الوطنية في تاريخها وتراثها العظيم. وتبجيل "الماضي الجميل" صاغ بشكل ما المعارف الإنسانية. فإن كانت بعض العلوم، مثل علم الآثار وعلم التاريخ، غير مرتبطة بالمزاج الإنساني وحنينه إلى الماضي، فإن صناعات كاملة ما كانت لتقوم لولا هذا الحنين. ومنها كل ما يربط الإنسان بالتحف القديمة، سواءً أكانت فنية أم لا. إذ يكفي

أن تمر بضعة قرون من الزمن على إناء فخاري لشرب الماء، لكي يصبح أغلى على قلب الإنسان (وأغلى ثمناً أيضاً) من أي منتج معاصر يؤدي الوظيفة نفسها بشكل أفضل.

في نظرة الإنسان إلى ما مضى من الزمان، يبدو العالم وكأنه كان خالياً من الآلام والهموم والمساوئ. فتختار كل ثقافة مرحلة من تاريخها لتطلق عليها اسم «العصر الذهبي». ولكن من المرجح أن هذه العصور لم تكتسب "ذهبيتها" إلا بعدما ولَّت إلى غير عودة.

وفي مواجهة طغيان مقارنة زمننا بالأزمنة السابقة في صِيغ عاطفية وأدبية عموماً، كتب أرت بوشوالد، المعلِّق الساخر في جريدة "هيرالد تريبيون" ذات مرة: "سواء أكان هذا الزمن هو أفضل الأزمنة أم أسوأها.. إنه الزمن الوحيد الذي نملكه".

البعد العلمي

مبدأ الكون: الانسجام والتناغم والتوافق والتناسق. فالكون، موسيقى تنسجم أنغامها وتتوافق. لذا لا يخرج هذا الكون عن إطار معقولية الوحدة. فهو، في شموله وتعدده، وحدة قائمة بذاتها؛ وليست أجزاء الكون الظاهرية غير أنغام الموسيقى التي تتساوق في انسجام. وهكذا يكون الكون نغماً.

فللكون، لمن يستطيع الاستماع إليه لو أتيحت له نقطة خارج النظام الشمسي أو غيره، موسيقى تنشأ عن النِسَب الرياضية القائمة بين الكواكب أو الواحدات وهي تدور بعضها حول بعض. وهكذا يكون الكون اهتزازاً، وتكون المادة درجة من درجات هذا الاهتزاز. والمادة المهتزة، كما يشير إليها العلم، بصفاتها العديدة – الكيميائية والفيزيائية والبيولوجية – تعبِّر عن وحدة شاملة. فما الظاهرات إلا تناسقات وأنساق ضمن الوحدة الأصلية. فكأن الكون لوحة من الفسيفساء تشغل فيه كلُّ قطعة مكانها في نظام واتساق. هكذا تعبِّر الظاهرات عن تضادٍّ ظاهري ووحدة داخلية. الكون امتداد، وليس تناقضاً؛ وثنائياته وأضداده لا توجد إلا من حيث الظاهر وحسب.

في عالم العلم هذا يرتبط الجزء الصغير بالكل؛ وذلك لأن إطار الحقيقة واحد.

فالجسم الإنساني، بتعدد أجزائه وأجهزته وأعضائه، وحدةٌ متماسكة، شاملة وكلِّية. وتتعذر دراسة الجزء أو العضو على حدة؛ وتُخفِق الدراسات التي تعتمد هذه الطريقة لأن الكثرة الجسمانية، والأعضاء كلَّها، واحدة في عملها وجوهرها، وكلُّ عضو يمتد إلى الكلِّ ويحيا في الكلِّ ومع الكلِّ وبه.

البعد الفكري

يصعب علينا أن نفرق بين البعد العلمي والبعد الفكري؛ فكلاهما كلِّية شاملة. فكما أن العلم يبحث في القوانين الشاملة، ويسعى إلى اكتشاف الكلِّ في الأقسام والتعددات، كذلك يبحث الفكر في الكل. فما يراه الإنسان من تعددات وكثرة ليس إلا حقيقة واحدة. من هنا أتساءل: كيف أستطيع رؤية ألوان الشمس ما لم تنعكس على الكرة الأرضية وتتشتت في فضائها؟ فالنور لا يكشف عن ألوانه إلا في انعكاس تعدد ألوانه، ليكون التعدد، في النهاية، نوراً واحداً. والحياة لا تكشف عن ذاتها إلا في التعدد والكثرة. ولما كان كلُّ ما هو موجود ينبض بالحياة كانت هذه الحياة خلفية الكلِّ وجوهره أيضاً. كيف أستطيع أن أفكر في الوجود، مهما بدت لي ظاهراته متكثِّرة، إلا ككلٍّ واحد؟ وكيف أستطيع أن أفكِّر إلا ككلٍّ غير منقسم؟

هكذا تتجلَّى الحياة، والنور، والوجود كلُّه، والفكر كلُّه، في الشمول. وكلُّ عملية تجريد عقلية تقودني إلى الكلِّية المطلقة، انطلاقاً من نسبة ظاهرية، أو من أضداد، أو ثنائيات، أو نقائض لا توجد بمعزل بعضها عن بعض. وإذا أخذنا مفهوم التجريد بعين الاعتبار أدركنا أنه يفضي بنا إلى الشمول والتكامل. ولو تساءلنا عن حقيقة البياض والصفرة والحمرة إلخ لوجدناها تجريدات مطلقة، بل وهي تنوع فى تذبذب الطاقة، في وحدة قائمة بذاتها.

البعد الإنساني

لا يسعنا أن نبحث مسألة الإنسان إلا من ناحيتين:

أ. **الإنسان الفرد**؛

ب. **الإنسان الاجتماعي**.

كيف أستطيع أن أتصور الإنسان الفرد؟ هل يوجد عضو بمفرده؟ من هو الإنسان الفرد؟ وهل تكون لديه قيمٌ ومُثُل وغايات؟ الإنسان الفرد، في الواقع، غير موجود. وهذا لأن البشرية بدأت بجماعة.

والحق أن الجواب يستقيم متى علمنا أن هذه القيم غير موجودة إلا في الحياة الاجتماعية. ليس للإنسان إنسانية، إذن، إلا في الوجود الاجتماعي الذي هو حقل تحقيق إنسانية الإنسان. ونحن، على سبيل المثال، لو ألقينا نظرة على أنواع الوجوه البشرية، بتعدداتها وتمايزاتها، لعلمنا أن هذه الكثرة دليل على الوحدة أكثر منها دليلاً على الاختلاف والتباين. إن وجوه الآخرين تدلُّني على حقيقتي؛ فلولاها لما عرفت نفسي. لذا لا تحمل الوجوه سمات التناقض، بل التكامل.

وحدة التنوع

فالإنسان، في تعدد وجوهه، واحد. وعلى سبيل المثال، لو نظرنا إلى أنواع الإنسان لوجدنا تناقضاً ظاهرياً؛ لكننا، متى تعمقنا، وجدنا وحدة الهوية. فكأن الإنسان، بأنواعه وكثرة أفكاره، يلتقي في دائرة واحدة تتشعب منها شعاعات كثيرة تعبِّر عن حقيقة واحدة. وإذا ما نظرنا إلى أنواع الأفكار لوجدناها عديدة، إنما تجتمع في وحدة جوهرية في الإنسان. وإذا ما تفحَّصنا الكرة الأرضية، بتنوعات تضاريسها وأقاليمها، للاحظنا كثرة متنوعة تتآلف في وحدة. فكأن الحقيقة الواحدة والعالمية والشمول لا تتحقق إلا من خلال الكثرة. لذا لا أخشى التعدد لأنني أعتبره معالم حقة تتداخل في الوحدة. فهناك وحدة فى الاحتياج للأكل والشراب لكل إنسان بالرغم من تنوع الأغذية المتاحة (فالبروتين يوجد فى البقوليات واللحوم لمختلفة) وهى احتياجات ارادية ولكن هناك أحتياجات لا ارادية وهى التنفس فلا تنوع فيه فتساوى الاحتياج مع المتوفر.

الإنسان والمجتمع

في المجتمع الواحد يتَّحد الأفراد ضمن حقيقة واحدة خالية من كافة ضروب التعصب العرقي والمذهبي، ويرى كل إنسان ذاته في الآخر. فالإنسان يمتد في الإنسان. ولا يكون خلاص هذا الإنسان إلا في الإنسان الآخر ومن خلاله. فكل إساءة تبدر مني نحو الآخر تُعَدُّ إساءة للإنسانية جمعاء؛ وكل محبة تصدر مني نحو الآخر تُعتبَر تضحية للإنسانية جمعاء، لأن الإنسان يشتمل على الإنسانية كلِّها – الناس كلِّهم – في كيانه الخاص. وعلى الصعيد الاجتماعي العالمي والإنساني يعمل الإنسان على وضع قواعد العدالة والمحبة والمساواة التي هي مفاهيم مطلقة للجميع، لا يُنكِرها إلا المتزمتون، لأنها شاملة وعالمية. إن اجتماعية الإنسان تختلف، بجوهرها، عن تجمُّع الحيوان. فللحيوان حياة تجمُّعية، هي فردية مكررة، لا تدرِك ذاتها في إطارها الجماعي. أما اجتماعية الإنسان فهي انعكاسه في الآخر، وامتداد إلى مالا نهاية في هذا الآخر. فالإنسان لا يجد نفسه إلا في الآخر، ولا يكون لوجوده من معنى إلا في الإنسانية الشاملة.

فمن خلال مهنة الإنسان وعمله، إما أن يكون شخصياً، فإن لامستُ العالم كلَّه في مهنتي، فجعلت منها وسيلتي للاتصال مع الكلِّي، كنت إنساناً عالمياً وكونياً. وإن خدمت العالم كلَّه في مهنتي، حققتُ شخصيتي وكياني اللذين يمتدان إلى الكل. أما إذا جعلتُ من مهنتي وسيلة لتحقيق فرديَّتي، وصرت فرداً يعيش ضمن قوقعة الأنانية، فإن عالميَّتي تموت وأنانيتي تنبثق. هكذا ينبغي علي أن أربط عملي أو مهنتي أو فكري بالوجود الكلِّي، بالغاية القصوى، بالإنسانية كلِّها، بالمجتمع كلِّه.

ولما كانت غايتي من الوجود هي المعرفة، وكان وجودي الاجتماعي تحقيقاً للغاية التي من أجلها وُجِدْتُ فإنني أضع نفسي في خدمة الإنسانية، لأمتد فيها، فأحقق وجودي، أي عالميتي وكونيَّتي. فأنا كائن وُجِدْتُ لأحقق أنبل ما في الكون. لذا، عندما أدرس أعماق هذا الكون وأسرار المعرفة المكنوزة فيه، أجدني أنادي بأمر واحد هو: الانسجام مع الكون في غاياته الكبرى التي أعبِّر عنها باجتماعية الإنسان، وبعالمية الرؤية، وبالتجسيد العملي لها.

وعالميَّتي هي أن أجعل من نفسي إنساناً يحقق عمق وجوده. وعالميَّتي هذه تشير إلى صلة كل عمل أقوم به، أو كل فكرة أفكر فيها، بالعالم كلَّه.

الأرتقاء والكونية

عندما أحيا كونيتى فقد تجردت من كل أنانية. ففي عالميَّتي أكون خادماً لغيري، محباً له؛ لا أستثمره أو أستغله، ولا أتكبر عليه؛ لا أنبذه أو أهمِّشه، ولا أكرهه أو أحقد عليه. ذلك أني أرى الآخر فيَّ، وأرى نفسي في الآخر. وعندما أعكس عالميَّتي هذه أراني في قلب الوجود والحياة الاجتماعية، أفعل فيها بطاقة تُحَثُّ على الدوام من أجل إعلاء قيمتهما في الإنسان – ظاهرة الوجود الأرضي الكبرى، أو الطبقة المفكرة. فالقوانين والمبادئ والنظريات الوضعية تنظم العلاقات الإنسانية، ولكنها لا تحتوى الكينونة الإنسانية. فلا يستطيع الجزء (القوانين) الإحاطة بالكل (الإنسان). كما لا تستقيم اجتماعية الإنسان ما لم ينسجم الإنسان مع قانون وجوده الكوني، فيطرح عنه كل ما يعيقه عن تحقيقه كونياً.

فمثلاً لو سقطت منك فردة حذئك ماذا ستفعل بالأخرى؟ إليكم هذه القصة، حكى أن "غاندي" كان يجري بسرعة للحاق بقطاروقد بدأ القطار بالسيروعند صعوده القطار سقطت من قدمه إحدى فردتي حذائه فما كان منه إلا خلع الفردة الثانية وبسرعة رماها بجوارالفردة الأولى على سكة القطارفتعجب أصدقاؤه؟ وسألوه ماحملك على مافعلت؟ لماذا رميت فردة الحذاء الأخرى؟ فقال غاندي الحكيم : أحببت الذي يجد الحذاء أن يجد فردتين فيستطيع الإنتفاع بهما فلو وجد فردة واحدة فلن تفيده ولن أستفيد أنا منها أيضاً. والعبرة من هذه القصة أنه إذا فاتنا شيء فقد يذهب إلى غيرنا ويحمل له السعادة فلنفرح لفرحه ولا نحزن على ما فاتنا.

كما أن الإنسانية جامعة شاملة كذلك هو الإنسان. وشمول الإنسانية يجعل البشرية جمعاء أسرة كبرى تنضوي في كنف المحبة والكل الشامل؛ فإذا الناس جميعاً أخوة يجتمعون في الحقيقة السامية وفي الإنسان. والناس جميعاً "إنسان كبير" (إخوان الصفا)، بوجود واحد، وصور كونية متعددة من حيث الشكل. إن تعليم المحبة هو أن شمولها العالمي، الإنساني الجامع،

إنما يرتكز على قانونها الأعظم: جميع الناس، على اختلاف أعراقهم وألوانهم وأممهم وثقافاتهم، يؤلِّفون جسماً واحداً – مادة واحدة، وروحاً واحدة لا تتناقض بذاتها.

المحبة مبدأ يتجاوز كل المبادئ الأخرى لأنها شريعة الوجود الكلِّي. فالحقيقة السامية–المحبة تجمع الكون كلَّه فيه. لذلك تحيا العوالم كلُّها، بعضها مع بعض، في سكينة الحقيقة السامية. هكذا تتماثل المحبة مع الجاذبية في لغة العلم: هي جاذبية الخلية للخلية، والذرة للذرة، والجوهر للجوهر، والنوع للنوع، والكواكب للكواكب، والإنسان للإنسان. هي، إذن، تماسك الوجود، وتناغمه، بعضه مع بعض، في كلٍّ متَّحد. ولولا هذا الملاط – ملاط المحبة–الجاذبية – لتنافرت العناصر وانفرط عقد الكون والوجود.

تتحقق الإنسانية في شعور الإنسان بشموله وكونيَّته. ولما كان الإنسان الواحد قد وُجِد بأنواع عديدة في جميع أنحاء العالم فإن فكرة عالمية الإنسان تتخلل جميع الأمم والشعوب في إنسانية الإنسان. وليست الإنسانية إلا إنسانية هذا الإنسان وصورته المجردة في الأنواع الإنسانية. أما الإنسان المشخَّص الواقعي فهو الإنسان الكائن الحي العاقل الذي يهدف، من خلال تنوعه وتعدده، إلى غاية واحدة. إن آمال الإنسان وتطلُّعاته المتصاعدة من أنحاء العالم كلِّه تشير إلى وحدة الوجود الإنساني وإلى تحقيقه في شعور واحد متكامل. إن عالمية الإنسان مبدأ يحثنا على احترام الإنسان وتقديره وإعلاء شأنه. ويتجلى هذا الاحترام والتقدير في المبادئ التالية:

١. إن كنا نعتبر الإنسان رمزاً للوعي الكوني غير المحدود فإنه يستحق التكريم والتقدير. فالإنسان الذي يحيا ضمن دائرة الوجود يتجاوز المحدود. وليس شعوره باللامحدودية غير دليل على لامحدوديَّته. لذا يخرج الإنسان بهذا الشعور عن نطاق الوجود المحدود.

٢. إن كنا نعتبر الإنسان مثالاً شاملاً لوجود البشر أجمعين فإن كل إهانة تُلحَق به تُلحَق بالجنس البشري أجمع. إن احترام الإنسان يعني احترام الإنسانية كلِّها، والعناية به تعني

العناية بالبشرية كلِّها. ولما كانت محبة الإنسان الواحد تشير إلى محبة الإنسانية جمعاء فإن هذه الفكرة تستحق بذل كلِّ جهد لتحقيقها.

٣. إن كنا نعتبر الإنسانية متنوعة في لونها وعرقها، في فقرها وغناها، في أقطارها وتقسيماتها الجغرافية، فلا يحق لنا استغلال الآخرين أو كرههم لأن التنوع يشير إلى التكامل، لا إلى التناحر. وإن كنا نعتبر أناساً أفضل من أناس آخرين، لأسباب تتعلق بالمعيشة أو البيئة أو اللون أو العنصر أو المعتقد، فإن الإنسان، في رحلة حياته الأرضية، يمر في هذه الأطوار كلِّها. وإن هو احتقرها في غيره فإنما يحتقرها في نفسه: إن كنت أعتبر غيري عبداً فأنا عبد مثله في مجالات عديدة؛ وإن كنت أعتبره زنجياً فأنا أكثر سواداً منه في داخلي؛ وإن كنت أعتبره فقيراً أو متخلفاً فأنا أفقر منه وأكثر تخلفاً في مجالات شتى. إن محبتي للإنسانية تدفع بي إلى تجاوز كل ما أعتبره عائقاً أو فاصلاً بيني وبين الإنسان، أيِّ إنسان.

٤. إن كنا نعتبر الإنسانية تسعى إلى غاية فلا يحق لنا أن نعمل لتثبيت التفرقة العنصرية والانقسام الإقليمي؛ وهذا لأن الغاية تشير إلى تلاقي الأهداف التي تتفرع من الغاية الأصلية. ولا تتحقق هذه الغاية إلا بالمحبة.

إن عالمية الإنسان، كونه ينتمي إلى عالم واحد، والأخوة الإنسانية، لا تتعارضان مع اجتماعيَّته، كونه ينتمي إلى وطن. فالإنسان شبيه بالبؤرة التي تشع في اتجاهات ثلاثة:

أ. **من كيانه إلى ذاته**؛

ب. **من كيانه إلى المجتمع الذي ينتمي إليه**؛

ت. **من كيانه إلى العالم**.

ففي البؤرة الأولى يشع الإنسان وفق قاعدة فطرية تعبِّر عن ناموس كوني، غير مكتوب باليد، نُحِتَ فيه منذ الأزل. وتُعتبَر هذه المرحلة أهم المراحل الثلاث جميعاً؛ وذلك لأن الإنسان الجوهر، المجرَّد، لا يسعى إلى الغايات النبيلة ما لم تكن كامنة فيه أصلاً. لذا كان عليه أن

يحققها أولاً. ومتى حقق الإنسان معنى وجوده والغاية منه سعى إلى إشعاعه في البؤرة الثانية التي هي المجتمع. ففي إشعاعه باتجاه المجتمع يحقق الغاية من وجوده في مجالين: المجال الشخصي – إنسان الماهية والجوهر، وفي المجال الاجتماعي – إنسان الواقع والتحقيق. أما البؤرة الثالثة فإنها تتجلَّى في موقف إنساني يتجاوز حدود المجتمع إلى الإنسانية بعامة، وإلى الكون ولانهايته. ويُعتبَر هذا الإشعاع تحقيق لإنسانية الإنسان، وهو يشعر بانتمائه إلى العالم كلِّه.

الوعى الإنساني ونسبية الصورة الذهنية

إن إدراك الإنسان ومعرفته للأنماط الإدراكية التى تولد مساحات إدراكية تفعل من خلالها أدوات (الوعي الإنساني) فعلها، فتتسع المعرفة، وتصوراتها لتراكيب المادة، وأبعادها، ووظائفها، ويعمل الخيال الإنساني كملكة عقلية نفسية على طرح احتمالات وفرضيات واعطاء تخيلات قد تكون وصفية، بل ويبدأ الاشتغال عليها تطبيقياً للوصول للحقائق العلمية الثابتة، وأصولها، فالنشاط (الإنساني الواعي) هنا هو نشاط يدمج (التأمل والتبصر) ويربط النظرة الإدراكية التي هي علاقة (الذات الإنسانية مع موضوعها). هذه العلاقة بتطورها تفتح حقولاً دلالية جديدة يبنى عليها، وتضاف لمدماك البناء المعرفي الإنساني.

وكذا فإن الكينونة الإنسانية، وفعلها المجتمعي هي رابط ومنظم بين فعل المحسوسات، والمدركات وهي التي تنظم حركة الواقع، فترتب، وتصنف (المدركات والموجودات) لتجعلها قريبة الفهم والمعرفة. من هنا يظهر الاختلاف بين الثقافات وسببه هو اختلاف في (الأنماط الإدراكية) أي طريقة تناول الواقع، وتصنيفه فلسفياً في حقوله الأخلاقية، وسلمه القيمي، ونمط النظرة الاجتماعية لأنواع المعارف فلسفياً بغض النظر عن كينونتها المادية المحايدة. فلابد أن تعى وتعلم عزيزى القارئ أن كل شيء ديناميكى حركى أو ثابت أستاتيكى فهو نسبى لكل شخص ولكل وعى فكرى أو إدراك تخيلى.

في السياق التاريخي لتطور (الوعي الإنساني) انتقل الإدراك من (القصد اللاواعي) إلى

(القصد الواعي) وتراكمت المعارف الثقافية على بنيات فكرية، وفلسفية تداولها الناس في سلوكهم، وعلاقاتهم الاجتماعية. هكذا نشأ الوعي الجمعي الثقافي، وتداول القيم، والأعراف، والأخلاق بنوع من الإدراك الفلسفي للإنسان في علاقته مع محيطه، ووجوده الطبيعي فيه.

وبقيت المشكلة الرئيسية في المعرفة الإنسانية هي قدرة (الموجودات الحسية) ورؤية الإنسان لها في خلق (الوعي العقلي) ثم قدرة (الوعي العقلي)على إثبات الحقائق الموضوعية،و الإداك العقلي الإنساني هنا هو (حقل معرفي) تعمل فيه (الذات الإنسانية) وتتفاعل مع (المدركات الحسية) ليغدو الوعي بعدها (مرآة للذات والموضوع) في الرؤية والاكتشاف المعرفي.

هنا تبرز مسألة هامة وأساسية في (الوعي الإنساني) هي: إن أحكام الطبيعة سارية على موجوداتها والإنسان موجود في هذه الطبيعة يقيم المعرفة من خلال اكتشاف قوانين الطبيعة والوجود، فالعلم هو قراءة الموضوعات، وآليات نشاطها، وقوانينها، أما الخيارات الإنسانية، والتأثير في الطبيعة،والعلاقات الاجتماعية فيعود إلى (الأخلاق الإنسانية). فالإرادة الحرة تختار منظوماتها الفلسفية وتستخدم العقل في خياراتها، وتوظف ما تسيطر عليه من الوجود باتجاه أو بآخر وهذا فعل يدخل في أخلاقية الوعي الإنساني لطبيعة الكون وفلسفة وجوده. وهذا كله يعتمد على الموروثات والمكتسبات العلمية والثقافية والمعتقدية والاجتماعية التى تولد داخل كل إنسان صور متنوعة ومختلفة لكل أصل محيط بنفسه، بل قد تتغير الصور النسبية بناءً على الحلة المزاجية للشخص. فالوعي الإنساني (عملية مادية ميكانيكية) توجهه ايديولوجيا (علموية) تنسب الاستقراء المعرفي للموجودات وعلاقتها الواعية، فتأثرها مباشرة بما هو متاح من أفكار وتخيلات يملك الإنسان من خلال كل ما هو مكتسب وموروث. فالحواس ليست آلة تصوير لكنها تلعب الإرادة الواعية، والعمليات الذهنية دوراً في العمليات المادية الذهنية، وهنا تدخل الإرادة النفسية في الذهني المادي. وبالتالى فإن الوعي ليس مجرد انعكاس للواقع في الفعل الإنساني بل هو ضبط للمحسوسات والمدركات في توالف تدخل فيه الذات الإنسانية فتنظم وتبرمج وتعاد برمجتها من خلال كل المكتسبات البيئية والمجتمعية والعلمية اليومية.

والوعي الداخلي للإنسان يدرك الفروقات بين الصور الذهنية النسبية حسب ما تعكسها

المشاهدات المادية. كما تركب النفس صوراً إبداعية بناء على ملامح ومعطيات حسية، فتصبح الصور نوعاً من الوعي الجديد للأشياء والوجود. كما أن الوعي يستطيع أن يعدل في الإدراك الحسي بمعنى أن الوعي يوجه المادة الحسية المدركة. وكخلاصة يرتبط (الوعي الإنساني) كملكة عقلية بمساحات وجدانية،وانفعالية نفسية مع المدركات، وبمستوى من الأخلاقية، والدينية التي تحدد جميعها طبيعة هذا الوعي وأنماط إدراكه.